رفاعة رافع الطهطاوي الصحفي

كلمات عن الصحافة

RAFAAH RAFIE AL-TAHTAWI; THE JOURNALIST; DISCUSSION OF HIS JOURNALISM

د. ذاكر حسين جمشيد*

ABSTRACT:

The East-West encounter was an important historical event in modern time that led to good and bad developments in various spheres of life. Values changed, new theories emerged, new political and ideological systems emerged, and new genres and arts came into existence. One of the advantages of this encounter was the emergence of the journalism, which has played and continues to play an important role in educating people, so much so that it has become one of the basic pillars for the establishment of any civilization. The Arabic Journalism is also the result of this connection, and the one who laid its bases in the Arab world is Rafaah Rafie al-Tahtawi. His role in this area similar to his roles in other areas is effective, constructive and pioneering which manifested through the newspapers "الوقائع المصرية" and "روضة المدارس", and this article briefly tries to throw light on this aspect of the personality of Rafaa Tahtawi.

KEYWORDS: Arabic, Journalism, East-West, Rifaah Rafe al-Tahtawi, al-Waqae al-Misriyya

الكلمات المفتاحية: الصحافة العربية، الشرق–الغرب، رفاعة رافع الطهطاوي، الوقائع المصرية

ملخص البحث:

كان احتكاك الشرق بالغرب في عصرنا الحا ضر حدثا تاريخيا هاما تولدت منه محاسن ومساوئ في مختلف مجالات الحياة. وفدت نظريات وعلوم وفنون لم يكن للشرق بها عهد، فانقلبت الموازين وتغيرت القيم ونشأت نظريات جديدة، ونظم سياسية وإدرية جديدة، كما ظهرت أجناس وفنون أدبية لم تكن معروفة البتة. ومن حسنات هذا الاتصال ظهور

* حامل شهادة الدكتوراه من مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو–نيودلهي

الصحافة التي لعبت ولا تزال دورا مهما في توعية الإنسان بنفسه وبما حوله حتى عدت من الركائز الأساسية لإقامة أية حضارة أو مدنية. أما الصحافة العربية فهي أيضا وليدة هذا الاتصال، وإن الذي أرسى قواعدها في العالم العربي هو رفاعة رافع الطهطاوي. إن شخصية رفاعة الطهطهاوي التي تميزت في فترة تاريخية خطيرة من فترات تاريخ العالم العري بالعطاء المتنوع البالغ الأهمية، فكان دوره في هذا المجال أيضا فعالا وبناءا وريياديا، وتجلى ذلك من خلال الصحيفتين "الوقائع المصرية" و"روضة المدارس"، وهذا المقال بإيجاز يحاول إلقاء الضوء على هذه الناحية من شخصية رفاعة الطهطاوي.

المقدمة:

ولدت الصحافة العربية على أيدي الأجانب من فرنسيين و أمريكيين لأن هذا الفن بضاعة دخيلة لا عهد للشرق بها قبل امتزاجه بالغرب.

ولسنا بحاجة إلى تبيان الدور الكبير، الذي قامت به الصحابة في تاريخ نهضتنا الحديثة ان كان في ميدان السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد أو الأدب أو العلم أو حتى اللغة بصورة خاصة. فالصحافة وحدها هى التي كونت لغتنا المعاصرة التي نكتب بها اليوم و جعلتها على مثل هذه السهولة واليسر والبساطة في التعابير وافرة في الكلمات المستحدثة المألوفة، كما أن الصحافة هى التي اسهمت اسهاما فعليا في كفاح جميع البلدان العربية والإسلامية إلى أن نال معظمها الاستقلال.

كلمة الصحافة ومشتقاتها:

الصحافة لغة مشتقة من الصحف: جمع صحيفة، والصحيفة كما شرحها ابن منظور في "لسان العرب" هى التي يكتب فيها.

وفي القرآن الكريم وردت هذه الكلمة في سورة الأعلى حيث يقول الله عز و جل: "إن هذا لفي الصحف الأولى، صحف إبراهيم و موسى" والصحف هنا بمعنى الكتب المنزلة.

وفي الصحاح للجوهري أن الصحيفة و جمعها صحف و صحائف هى الكتاب بمعنى الرسالة، وفي الحديث الشريف: "أتراني حاملا إلى قومي كتابا كصحيفة المتلمس" و منها

اشتق المصحف (بضم أو كسرها) بمعنى الكتاب الذي جمعت فيه الصحف اي الأوراق والرسائل.

و لما عرف العرب الصحافة في مطلع القرن التاسع عشر لأول مرة كانوا يطلقون عليها لفظة "الوقائع"، و حين أنشأ خليل الخوري (1907-1836م) سنة 1858م، صحيفة "حديقة الأخبار". وهى أول صحيفة عربية بالمفهوم الحديث – أطلق عليها التعريف الفرنسي "جورنال"[1]. غير أن كلمة الصحافة بمعناها المتعارف عليه اليوم لم تصل إلينا إلا على يد الشيخ نجيب الحداد (1899-1867م) منشئ صحيفة "لسان العرب" في الإسكندرية و حفيد الشيخ ناصيف اليازجي، وهو أول من استعمل لفظة الصحافة بمعنى صناعة الصحف والكتابة فيها، و منها أخذت كلمة صحافي (Journalist)، أما صحفي (بضم الصاد) فهو خطأ شائع إذ لا تجوز النسبة إلى الجمع في اللغة العربية، ولكن الأصح هو صحفي (بفتح الصاد) نسبة إلى الصحيفة.

أما تعريف الصحافة فهى ذات مفاهيم متعددة، منها المفهوم المادي، والمفهوم الإصطلاحي، والمفهوم العام.

والصحافة بمفهومها المادي:

الصحافة بمفهومها المادي هى كمنهة تعني صناعة نشر الصحف الدورية المطبوعة والكتابة فيها، وهى كسائر الصناعات تتكون من معامل للإنتاج، وتحتاج غلى حشد من العمال والموظفين و رجال الإدارة، بالإضافة إلى المواد الخام الضرورية للإنتاج وفي طليعتها الورق والكتابة ومصادر الأخبار، و ما يستلزم ذلك من آلات طابعة تحتاج هى أيضاً إلى احرف و معدات وحبر و أجهزة و صيانة أضف إلى ذلك الكليشهات والصور وآلات نقل الأخبار (Teletype) التي اصبحت ضرورية للصحافة الحديثة.

والصحافة بهذا المفهوم تعني أيضا العمل في الصحف المكتوبة، وهذا العمل ينقسم

[1] الصحافة العربية نشأتها و تطورها، اديب مروه،ص14(الطبعة الأولى ، دار المعارف بيروت، 1961م).

إلى عدة فروع أهمها التحرير والإخراج والإدارة والإعلان والتصوير، و كل فرع من هذه الفروع يعتبر تقريبا مستقلا عن الآخر، و لكنها في النهاية تأتلف جميعها لتصف في مجرى واحد، وهو تكوين الصحيفة المطبوعة كما تظهر بين أيدى الناس[2].

المفهوم الإصطلاحي للصحافة:

الصحافة تعنى بهذا المفهوم فن تسجيل الوقائع اليومية بدقة و انتظام و ذوق سليم، مع الإستجابة لرغبات الرأي العام و توجيهه والإهتمام بالجماعات البشرية، و تناقل أخبارها، و وصف نشاطها، ثم تسليتها، و تزجية أوقات فراغها وعلى هذا فالصحافة هي مرآة تنعكس عليها صورة الجماعة و آراؤها و خواطرها، و قد عرف الدكتور محمود عزمي الصحافة بقوله: "إنها وظيفة اجتماعية مهمتها توجيهه الرأي العام عن طريق نشر المعلومات والأفكار الخيرة الناضجة، مفعمة و منسابة إلى مشاعر القراء من خلال صحف دورية"[3].

أما أهداف الصحافة فهي كما يلي:

الإخبار، والإعلام، والشرح، والتفسير والتعقيب، والإرشاد، والتنوير، والتوجيه، و تلبية رغبات الجمهور، و حاجاته و أخيراً التسلية والإمتاع. و من هنا أصبحت الصحافة تشمل فنونًا عديدة، أهمها فن الخبر، وروايته، و فن المقال، و ما يتفرع إليه من تعليق و بحث ورواية و فن التقرير الصحفي "Reportage" وما يتفرع عنه من تحقيق و مقابلة "Interview" و نقد فني و أدبي، هذا ما عدا فنون التصوير الرسم الكاريكاتوري و سائر أبواب الميادين العامة التي تهم الناس، ولكل من هذه الفنون قواعدها و أصولها و طرقها المتبعة.

المفهوم العام للصحافة:

و أخيرًا هناك المفهوم العام للصحافة، و يمكن القول هنا بأن الصحافة هى عين

[2] نفس المصدر، ص16-17

[3] نفس المصدر، ص17

الشعب على الحاكمين، وفي هذا الخصوص قال الرئيس الأمريكي جيفرسون: "الصحافة هي خير أداة لتنوير عقل الإنسان ولتقدمه ككائن عاقل أخلاقي و اجتماعي" . بيد أن الصحافة هي سلاح ذو حدين فالصحافة كما يفقرض هي أداة إرشاد و تربية و إمتاع، ولكنها قد تنقلب إلى أداة تضليل و إفساد و تملق للجماهير، إذا أسيئ استخدامها و أصبحت وسيلة للدعاية والكسب[4].

و مهما يكن من الأمر، فإن الصحافة قادرة على صنع الأعاجيب لأنها تتمتع بالحرية البالغة و تملك سلطة أكبر من الحاكم، من أجل ذلك أطلق عليها "السلطة الرابعة" ولكنها في الحقيقة السلطة الأولى فيما يتعلق باللغة والأدب والأخلاق والعادات و تقويم المجتمعات واستئصال الفساد وأخيرًا توجيه الشعوب و قيادة نضالهم و مقاومة الشرور والظلم والإستعمار.

أنواع الصحافة:

و يمكن تقسيم الصحافة بالنسبة لدوريتها إلى عدة فئات: منها اليومية و هذه إما أن تكون صباحية أو ظهرية أو مسائية، و منها نصف الأسبوعية والأسبوعية، و نصف الشهرية ولاشهرية، والفصلية.

أما من حيث الموضوع فيمكن تقسيم الصحافة أيضا إلى عدة فئات منها: الصحف الجامعة من سياسية، و غيرها، والصحف الإختصاصية كالمجلات الخاصة بالميادين الإختصاصية كعلم الزراعة والنفس والتجارة وغيرها، ثم الصحف الأدبية والصحف المسلية الخفيفة والصحف الفنية، كما أن هناك صحافة الإذاعة والسينما والتلفزيون و لكل منها قواعد و ضوابط خاصة.

أقدم جريدة في العالم:

وإذا أردنا الاستقصاء لمعرفة أقدم جريدة صدرت في العالم "اتضح لنا كما يقال أنها جريدة "كين بان" الصينية التي صدرت عام 911 قبل الميلاد وهي الصحيفة الرسمية لحكومة

[4] نفس المصدر، ص18

الصين، و يعتقد أنها مازالت تصدر إلى اليوم[5].

مولد الصحافة العربية:

كما كانت النهضة الأدبية الحديثة التي عمت العالم العربي منذ مطلع القرن التاسع عشر نتيجة اللقاء بين الشرق والغرب، أثر حملة نابليون على مصر (1798م) م كذلك كان مولد الصحافة العربية وليد اتصال الغربيين ببلاد الشرق والعربي، ولا غرو فالفن الصحافي كما نعرفه اليوم إنما نشأ وترعرع في أحضان الحضارة الغربية، و كان الغربيون هم الذين ابتدعوه و حسنوه و جاءوا به إلى الشرق.

الصحافة العربية في مصر:

الصحافة العربية هي من جملة بذور المدنية الحديثة التي ألقاها الفرنسيون بمصر آخر القرن الثامن عشر، فأنشؤا في أثناء إقامتهم بمصر (1801-1798م) جريدتين فرنسيتين هما LaDecadeEgyptienne (لادكاد إجبسيان) LeCourrierdEgypte (لى كوريه ديجيبت) ولكن ذهب كلاهما بذهاب تلك الحملة الفرنسية[6].

و بالإضافة إلى ذلك أنشؤا جريدة عربية باسم "التنبيه" في عام 1800م التي هى أول جريدة عربية في تاريخ الصحافة العربية، ولكنها كانت في شكل نشرة عسكرية قضائية.

إن صدور "الوقائع المصرية" كانت في الحقيقة حادثة عظيمة في تاريخ مصر الثقافي، فقد كان له أعظم تأثير في نشر الوعي الثقافي والأدبي في مصر، و كذلك في نشر الموضوعات الإجتماعية والسياسية و غيرها، و قد رقاها إلى منبر من منابر العلم والأدب والإرشاد والتوجيه السيد رفاعة رافع الطهطاوي عند ما تولى رئاسة تحريرها.

رفاعة رافع الطهطاوي الصّحفي:

عندما نتحدث عن رفاعة رافع الطهطاوي الصحفي لابد لنا أولا من النظر إلى هاتين الحقيقتين:

---

[5] نفس المصدر، ص54

[6] تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، ج4، ص411،(دار مكتبة الحياة بيروت، لبان،1967م).

الأولى:

أن الصحافة المصرية بدأت رسمية، بمعنى أنها كانت في أول أمرها من وحى الولاة والحكام، ولدت في حجورهم و عاشت بأموالهم و كان عليا أن تساير رغباتهم و تنفذ أغراضهم.

والثانية:

أن الصحافة المصرية في هذه المرحلة الأولى من مراحل حياتها كانت – بوحى من الحاكم أيضًا – تهدف إلى أمور منها نقل العلوم والآداب الحديثة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، و لعل هذا هو السبب الذي من أجله قضى المصريون – حكاما و محكومين – أكثر من نصف القرن الماضي في شئ واحد فقط: هو "محاربة الجهل" و كان من أهم وسائلهم في ذلك وسيلتان هما: (المدرسة) من جانب (والصحيفة) من جانب آخر.

أما الحياة الصحفية لرفاعة رافع الطهطاوي فتظهر في صحيفتين رسميتين هما: صحيفة "الوقائع المصرية" و صحيفة "روضة المدارس".

رفاعة رافع الطهطاوي في الوقائع المصرية:

صدر العدد الأول من الوقائع المصرية في الثالث من ديسمبر عام 1828م، و أن قرارا رسميا صدر عن ديوان المدارس في الحادي عشر من يناير عام 1828م (1257هـ) بتعيين رفاعة رافع الطهطاوي رئيسا لتحرير هذه الصحيفة، كما تضمن هذا القرار دستورًا جديدا لهذه الصحيفة، و تفصيل ذلك أن حدث بعد عودة رفاعة رافع الطهطاوي من فرنسا أن كان مُحَمَّد علي شديد الرغبة في وضع خطة سديدة تضمن صدور الوقائع على الوجه الأكمل، كما هى الحال في صحافة الأمم الأخرى، فأصدر أمره بوجوب تحقيق هذه الغاية، فاجتمع المسؤلون ، وأرسل ديوان المدارس و كان هو المشرف على الوقائع المصرية يومئذ – في ذي القعدة سنة 1257هـ (11 يناير سنة 1842م) إلى ديوان المعاونة صورة القرار بشأن طبع الوقائع و نشرها، وهذا هو القرار "إن الغرض من طبع الوقائع إنما هو لنشر الأخبار الحديثة على الناس، حتى يستفيد منها كل إنسان، ولا يجب الاكتفاء بنشر أخبار مصر فحسب، و قد أصبح من اللازم إضافة بند للحوادث الخارجية في الجريدة حتى

يتقبلها الناس برغبة و شوق، و يشتاقون لقرائتها، فالأخبارتسقط قيمتها إذا تقادم عهدها، ولذلك وجب الحصول على الأخبار أوّلاً فأولا، و نشرها على الجمهور، و لما كان في بعض الأخبار الأجنبية أشياء لايليق نشرها فقد تقرّر تمييزها، و عدم نشر المواد الغير مناسبة و نشر الحوادث الداخلية والخارجية الملأى بالعبر والمنتظر فائدة منها".

"و حيث إن نشر مثل هذه الأخبار يتوقف على قراءة الجرائد التي تنشر في الخارج، و يستوجب أن يكون الموظف المشرف على ترتيب الجريدة و تنظيمها ملماً باللغتين، وعلى ذلك فقد تقرر إحالة أعمال ترجمة المواد المناسبة من الجرائد الأجنبية، و علاوة بعض قطع أدبية من الكتب الأدبية، و انتخاب أخبار الملكية و ترتيب الجريدة المصرية، بصفة عامة على حضرة الشيخ رفاعي أفندي ناظر مدرسة الألسن، لوجود مترجمين جاهزين، في هذه المدرسة، وإناطة تفريق المواد التي تستحق النشر، و بحث المواضيع التي ستدرج بالجريدة بحضرة أدهم بك مدير المدارس، و حيث إن حضرة الشيخ رفاعي سيضع أصول الجريدة بحسب اللغة العربية، فتحال أعمال إفراغ الترجمة في قالب حسن بدون الإخلال بالأصل العربي، و تنظيم المواد على حسب النظام التركي على حضرة حسن أفندي، ناظرا للمطبعة العامرة، على أن يعد هذا التكليف من اختصاص وظيفته بصفة أصلية".

"أما الحوادث الخارجية، و إن كانت ستنشر في الجريدة، إلا أن الأخبار المصرية ستكون المادة الأساسية، و سيمكن نشر الأخبار المصرية في كل أسبوع، إذا ما وردت التقارير في الوقت المناسب من ديوان المعاونة، و ديوان الجهادية، والديوان الخديوي، والإسكندرية، والأقاليم، إلى ديوان المدارس، و في حاله عدم ورودها في الوقت المناسب، يكلف على لبيب أفندي معاون ديوان المدارس والمترجم العربي للذهاب إلى الدواوين لإحضار الأخبار، و أن تنقل بعض أخبار مناسبة من جريدة استانبول و حيث إن الحوادث الأجنبية معتاد تقديمها إلى الباب العالي بعد ترجمتها إلى اللغة التركية فيكلف البك المترجم بانتخاب المناسب منها، و إرسال صورها إلى ديوان المدارس فبهذه الطريقة يمكن نشر الجريدة

أسبوعيّا[7].

و من المحقق أن رفاعة رافع الطهطاوي اشترك بنفسه في وضع مواده، ثم تولى بنفسه تنفيذ ذلك بطريقة كان لها الفضل كل الفضل في تنظيم الوقائع تنظيما جديدًا والدخول بها في طور آخر من أطوار حياتها الطويلة المجيدة، و ذلك أن الوقائع منذ صدورها في سنة 1828م، و حتى إشراف الطهطاوي عليها سنة 1842م، لم تكن صحيفة عربية مصرية، و إنما كانت صحيفة تركية يصدرها الوالي، و توضع مادتها باللغة التركية، ثم تترجم هذه المادة ترجمة ركيكة جدا إلى العربية، دون أن تلتزم هذه الترجمة العربية الدقة أو الوفاء بمضمون المادة التركية التي تحتل النهر الأيمن لصفحاتها، والتغيير الحقيقي والأساسي الذي أحدثه رفاعة رافع الطهطاوي لم يكن نقل العربية من اليسار إلى اليمين، و إنما كان "وضع أصول الجريدة بحسب اللغة العربية، ثم إفراغ الترجمة التركية في قالب حسن، فلقد أصبحت (الوقائع) منذ ذلك التاريخ صحيفة عربية، تترجم مادتها إلى التركية، كى تنتفع بها حاشية الوالي التي كانت التركية لغتها، و من هنا كان رفاعة رافع الطهطاوي – كما يقول تلميذه صالح مجدي مؤرخ حياته "حلية الزمن" أول منشئ "لصحيفة أخبار في الديار المصرية" ويشهد لهذا أن رفاعة رافع الطهطاوي قد أراد أن يكون إشرافه على (الوقائع) واضحًا و حاسمًا كبدء جديد لإصدار صحيفة جديدة، فأراد تغيير اسمها من (الوقائع المصرية) إلى مظهر أخبار مصرية) و أقر الشورى هذا التغيير في غرة ذي الحجة سنة 1257هـ. ولكن مُحَمَّد علي رفض هذا التغيير فاستمر اسم (الوقائع المصرية)[8]. للصحيفة العربية الجديدة.

إن انتقال العربية إلى النهر الأيمن بدلا من التركية، لم يكن هو التغيير، كما فهم البعض، بدليل أن اللغة التركية قد عادت ثانية فاحتلت النهر الأيمن لصفحات الجريدة، و أصبح

[7] الصحافة المصرية في مأة عام، عبد اللطيف حمزة، ص11 (دار القلم بمصر).

[8] تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، ص412،(دار مكتبة الحياة بيروت، لبان،1967م).

النهر الأيسر من نصيب العربية، في أواخر سنة 1842م[9]، و ذلك دون أن تعود للصحيفة أو ضاعها القديمة... فظلت أصولها توضع بالعربية، كأي صحيفة عربية، ثم تترجم هذه الأصول إلى التركية كى يقرأها الذين لايعرفون اللغة العربية.

وإذا كان هذا هو الإبداع الأساسي والتغيير الأول الذي أحدثه الطهطاوي بإشرافه على (الوقائع المصرية) فإن هناك عددا من التغييرات الفنية والصحفية التي أحدثها الرجل وبالأخرى: إن هناك عددا من الخصائص التي طبع بها صحيفته الجديدة، والتي تميزت بها عن تلك الترجمة العربية الركيكة لتلك الصحيقة التركية التي كانت تصدر بنفس الإسم فيما قبل يناير سنة 1842م. ولنذكر هنا بعض الخصائص والإصلاحات التي أدخلها رفاعة رافع الطهطاوي و منها:

أولا:

أنه لاحظ أن هذه الصحيفة تكتب باللغتين العربية والتركية، غير أن التركية كانت تحتل ناحية اليمين من الصحيفة بينما العربية تحتل الناحية اليسرى. فحين اشرف على الوقائع أصر على أن تكون العربية ناحية اليمين، والتركية ناحية اليسار، و تلك غيرة على اللغة العربية إن تكن شكلية فإنها تحمد لرفاعة رافع الطهطاوي ما دام التاريخ ينظر إلى الانتصار للعربية على أنه السبب الأول والأهم للنهضة القومية في مصر والنهضات القومية في غير مصر من البلاد التي تنطق هذه اللغة.

ثانيا:

لاحظ رفاعة رافع الطهطاوي كذلك أن مواد الصحيفة كانت تكتب أولا بالتركية ثم تترجم بعد ذلك إلى العربية، فإذا كان الأصل التركي سقيما في ذاته فأخلق بالترجمة العربية أن تكون ركيكة سقيمة كذلك. ولهذا السبب وجدنا رفاعة رافع الطهطاوي يحتم على الصحيفة أن تقدم المواد كلها باللغة العربية أولا، ثم لا بأس من أن تترجم هذه المواد إلى

[9] تاريخ الوقائع المصرية، إبراهيم عبدة، ص42-45(مكتبة الآداب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة مصر1983).

التركية بعد ذلك، وهذه أخرى من وقفات رفاعة رافع الطهطاوي في مجال الغيرة على اللغة القومية التي لا تنسى له هذه النعمة.

ثالثا:

عنى رفاعة رافع الطهطاوي في صحيفة الوقائع عناية خاصة بالأخبار المصرية مقدما إياها على الخارجية، و ذلك على خلاف ماكان متبعا في هذه الصحيفة قبل ذلك، ولاشك أن رفاعة رافع الطهطاوي كان مدفوعًا إلى كل ذلك "بمصريته" التي لم يتخل عنها في حياته لحظة ما.

تلك إذن أمثلة من تجديد رفاعة رافع الطهطاوي في الوقائع المصرية من حيث الشكل. و تم تجديد آخر لهذا الكاتب أشد من الأول خطرًا، و أعلى قدرًا لأنه تجديد تناول الصحيفة من حيث المادة أو الموضوع. وهنا أبدى مؤرخوا الصحافة المصرية إعجابهم بالكاتب لأمور منها:

أولا:

أن الوقائع المصرية – بفضل هذا الكتاب – انتقلت بغتة من الأخبار التافهة والعبارات الجوفاء إلا من مديح و ثناء على الوالي بحق حينا و بدون حق أحيانا إلى موضوعات هامة لها شأنها ولها نفعها للقارئ المصري في تلك الحقبة.

ثانيا:

أن الوقائع المصرية – على يد هذا الكتاب – شهدت أول محاولة لإنشاء المقال في تاريخ صحافتنا المصرية، والمقال في ذاته تفكير و تحرير – أو بعبارة أخرى – موضوع و أسلوب.

ونحن نقتطف هنا على سبيل المثال جزءًا من مقال نشره رفاعة رافع الطهطاوي في الوقائع بمناسبة الأزمة التي حدثت بين مصر و دول أوربا وانتهت في سنة 1841-1840م بمعاهدة لندن، فقد حملت صحف العرب على حكومة مُحَمَّد علي و سياسته الداخلية، و صورت أساليب حكمه أساليب منطوية على الظلم والإستبداد بالرعية، فكتب يدافع عن سياسة الوالي و يرد على مزاعم الأجانب، و قد بدأ رفاعة رافع الطهطاوي مقاله بالحديث

عن بعض أمراء المسلمين في سالف العصور و مثلهم في الحياة، فكان الوليد المشهور يشغل الناس بالدنيا "والمصانع والصنايع و شق الأنهار و غرس الأشجار" و كان عبد الملك يشغل الناس بالحديث عن "الأطعمة اللذيذة والثياب الرفيعة و يتغالون في المناكح و السراري" و لما كان عمر بن عبد العزيز "كان الناس يتساءلون ! كم تحفظ من القرآن؛ و متى تختم؟ و كم وردك كل ليلة؟ و كم تصوم من الشهر؟[10].

وذكر الكاتب هذا كله مقدمة لموضوعه، فكان حديثه صدى لثقافتة العربية، ثم بدا أثر الثقافة الغربية فيه حين استطرد متحدثًا عن تساؤل الناس في زمنه عن أحوال الدول داخلية و خارجية و من حيث إدارتها وسياستها، و ما فيها من التولية والعزل "وهذا ما يسمى بالبوليتيقة، والمتكلم في شأن ذلك يقال له بولوتيقي، فما كان بين الدول والملل يقال له بوليتيقة خارجية، و ما كان في دولة واحدة مما يتعلق بانتظامها و تدبيرها يقال له بوليتيقة داخلية، و الغالب أن الغازتات والوقائع هى التي تتكلم عن كل من البوليتيقة الداخلية والخارجية[11].

وهكذا يستمر المقال يدفع الناس إلى قراءة الصحف، أى قراءة الوقائع المصرية التي لم يكن لها زميلة، والتي لها وحدها – في عرف المحرر – حق التحدث في السياسة الداخلية أو الخارجية و ليس هذا غريبا على عقلية شهدت الهزة الفرنسية في ثورة الفرنسيين سنة 1830م، التي قضت على حكم شارل العاشر و غيرت من الأوضاع السياسية هناك بفعل الصحف التي قادت بالرأى الحر أفكار الناس ووجهتهم حيث شاءت، و حيث كانت خاتمة الملك المستبد الذي لايعدل بين رعيته.

فأما موضوع المقال الذي كتبه رفاعة رافع الطهطاوي في ذلك الحين فقد كان جديدًا كل الجدة على أذهان المصريين. ذلك أنه تناول موضوع الحاكم و موضوع الرعية، و شرح وظائف الحكومة، و تكلم عن أنواع الحكومات الأجنبية، وهنا تحدث الكاتب بحيطة تامة

[10] نفس المصدر، ص48

[11] نفس المصدر، ص54

عن الحكومات الإسلامية في معرض التفرقة بينها و بين الحكومات الأوربية ولا غرابة في ذلك فقد كان رفاعة رافع الطهطاوي يتناول هذه الموضوعات في وقت كان الحاكم فيه "مُحَمَّدعلي" وهو رجل دكتاتوري النزعة.

وأما الأسلوب الذي كتب به رفاعة رافع الطهطاوي مقالاته ففيه تظهر المحاولة الأولى لإنشاء المقال في تاريخ الصحافة المصرية. أى أن لهذه المحاولة صفة "الأولية"، والأولية دائما أولى مراتب النشؤ والارتقاء و من ثم جاءت أهميتها من الناحية التاريخية.

ثالثا:

من تجديدات رفاعة رافع الطهطاوي في الوقائع المصرية كذلك أنه ضمن كل عدد من أعدادها قطعًا أدبية أخذت من بطون الكتب العربية القديمة كمقدمة ابن خلدون و غيرها، و قصد رفاعة رافع الطهطاوي من ذلك، هو تقديم الغذاء الكافي لقراء الوقائع المصرية، و تمكين الصحافة من القيام بواجب التثقيف و تنوير الأفهام إلى جانب الواجب الأول لكل صحافة في العالم؛ وهو واجب الإخبار والإعلام.

رابعا:

وأصبح لها تبويب صحفي ثابت، فأصبحت تشتمل على الأخبار الملكية (السياسية) داخلية و خارجية و صناعية و تجارية و علمية و أدبية[12].

وهذا كله من ناحية التحرير و في ناحية إدارة الصحيفة وجدنا رفاعة رافع الطهطاوي يرتب لها المحررين والمترجمين والمصححين و يعين لهذه الصحيفة – و ذلك لأول مرة في حياتها – المندوبين الذين يجمعون لها الأخبار من دواوين الحكومة وهكذا استكملت "أسرة التحرير" في هذه الصحيفة كل أدواتها، و عرفت هذه الصحيفة، تحت إشراف رفاعة رافع الطهطاوي، الإنتظام في مواعيد صدورها، فأصبحت تصدر أسبوعيّا كل يوم جمعة، و تحدد لها شعر ثابت، و تعين لبيعها مكان معروف و اتسع نطاق توزيعها، وغدت أقدر على أداء مهمتها أكثر من ذي قبل.

[12] إعلام الصحافة العربية، إبراهيم عبده، ص32 (مكتبة الآداب بمصر 1948م).

بقيت الوقائع المصرية تصدر على هذا النحو أسبوعية، و تطالع القراء بهذه الألوان الصحفية حتى جاء عهد عباس الأول فأصيبت هذه الصحيفة العظيمة بنكسة شديدة واختفت منها المقالات السياسية والإقتصادية، كما اختفت الأخبار الخارجية و كثير من الأخبار الداخلية، و عادت تنحصر في بعض القرارات الرسمية، أما رئيسها رفاعة رافع الطهطاوي فقد أبعد في السودان بحجة الإشراف على إنشاء مدرسة إبتدائية هناك.

"رفاعة رافع الطهطاوي في روضة المدارس:

و لم يعد رفاعة رافع الطهطاوي إلى العمل الصحفي في عهد عباس و سعيد، حتى إذا جاء عصر إسماعيل قرر ديوان المدارس و ناظره علي مبارك، سنة 1870م (سنة 1287هـ) إصدار مجلة فكرية و ثقافية وأدبية، كانت الأولى من نوعها في مصر وهي "روضة المدارس" و كان الغرض من إنشاء هذه الصحيفة النهضة باللغة العربية و إحياء الأدب العربي و نشر المعارف الحديثة، و أسند نظارتها إلى رفاعة رافع الطهاطاوي، و كان علي مبارك يرى رفاعة رافع الطهطاوي أجدر الناس بأن تسند إليه هذه النظارة فقد قال: "لما كان حضرة رفاعة بك ناظر قلم الترجمة بديوان المدارس هو المشار إليه بين أرباب المعارف بالبنان، والمعترف بدرجة فضله الرفيعة كل إنسان، ناسب أن تجعل هذه الصحيفة تحت نظارته، لتتحلى من معلوماته بالدر الثمين هو ينشر علمها، فيتلقاه محب المعارف باليمين"[13]، و تولى ابنه علي بك فهمي رفاعة رافع الطهطاوي رياسة تحريرها، و صدر العدد الأول من هذه المجلة الجديدة في السابع عشر من شهر أبريل سنة 1870م (15 محرم 1287هـ) و كانت هذه المجلة أو الصحيفة تصدر مرتين في كل شهر، و كان يشترك في تحريرها كل من يندب لهذه المهمة من ذوي العلم و المعرفة في ذلك الوقت. وأما "أهداف المجلة الجديدة" فكان من أجلها في الحقيقة النهوض باللغة العربية و نشر المعارف الإنسانية و الطريف أن شعار هذه المجلة –كما اختاره رفاعة رافع الطهطاوي هو هذان البيتان:

تعلم العلم و أقرأ تخرّ فخار النبوة

[13] نفس المصدر، ص32

فالله قال ليحي خذ الكتاب بقوة

قام رفاعة رافع الطهطاوي على تحرير (روضة المدارس) بحيث "تكون فيها الفوائد المتنوعة والمسائل المتأصلة والمتفرعة أقرب تناولا للمطلع المستفيد، وأسهل مأخذا لمن يعانيها من قريب الفهم والبعيد، بقلم سهل العبارة واضح الإشارة وألفاظ فصيحة غير حوشية ولا متجشمة لصعب التراكيب" ثم يقول: أن "المرام من ظهورها بهذه الصورة هو أن تنكشف للعامة مخدرات العلوم و ترفع حجبها المستورة و تستضئ بنورها أرباب العقول السليمة و أصحاب الطبائع المستقيمة" وهو يعد هذه الصحيفة للناس جميعا و خاصة أبناءه طلاب المدارس" حتى تتسع دائرة معقولهم و منقولهم" و هو يجعلها محلاً لثقة تلاميذه و مكاناً يطلون من نوافذه "إذا علم كل منهم أن ما يظهر من أعماله المستحسنة، ويشهر من أشغاله الدائرة على الأفئدة والألسنة سيقيد بهذه الصحيفة[14].

و كان رفاعة رافع الطهطاوي في روضة المدارس مطلق التصرف فكانت صفحاتها تضم خير ما عرف عصر إسماعيل من أدب أو سياسة أو اجتماع. فكانت فيها حكايات في تاريخ الأمم و آدابها وأخلاقها كما حفلت بموضوعات في الطب والزراعة والتجارة، كما نشر رفاعة رافع الطهطاوي ملاحق بها تبحث في موضوع طويل لا تحمله المجلة وهى محدودة الصفحات، و فتح محررها صدره لتلاميذ المدارس المجودين لينشروا ثمرات عقولهم شعرًا و نثرًا، و روضة المدارس صاحبة الفضل في تقديم "الشاب النجيب إسماعيل أفندي صبري" لجماهيرالعربية، وهو الذي غدا فيما بعد إمام النهضة الشعرية وعلما من أعلامها الكبار، و جعل رفاعة رافع الطهطاوي صحيفته لسانا للمدارسين و مكانا لأخبارهم عظمت أو هانت، و انتزع بذلك من "الوقائع بابا من أظهر أبوابها، وهو لا يقف صفحاتها على الشؤن الجدية بل أدخل في صفحاتها بعض الأحاجي، و خص معظم أعدادها بالقصة المترجمة، وهو لون من الأدب لم تكن تعرفه صحافة ذلك العهد، وهو فوق ذلك باب

[14] تاريخ الوقائع المصرية، إبراهيم عبدة، ص51(مكتبة الآداب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة مصر1983).

ساعد على نهضة الترجمة أيام إسماعيل.

و لم تكن (روضة المدارس) معينة بتقييد الأحوال السياسية الوقتية، والأفعال الرئاسية والإدارية، و إنما كانت أشبه بمجمع علمي و أدبي و فني. فلقد نظمها رفاعة رافع الطهطاوي أقساما يرأس كل قسم أكبر المتخصصين فيه بمصر في ذلك التاريخ، فكان أن ضمت هذه المجلة ضمن من ضمت:

1- صالح مجدي، وكيل ديوان المدارس، و المتخصص في ترجمة الرياضيات والعلوم الهندسية والعسكرية.
2- محمود الفلكي، أبرز علماء الفلك يومئذ.
3- إسماعيل الفلكي، ناظر لرصدخانة، و ناظر مدرسة المهندسخانة في عصر إسماعيل.
4- عبد الله فكري، الأديب، الشاعر الذي تولى نظارة المعارف في وزارة محمود سامي البارودي، زمن الثورة العربية.
5- مُحَمَّد قدري، المشرع القانوني، صاحب النظام القضائي للمحاكم الأهلية الجديدة، والذي تولى نظارة الحقانية ثم المعارف.
6- مُحَمَّد ندا، الكيماوي، والأستاذ بمدارس الطب، والمهندسخانة، وأركان الحرب، و صاحب الترجمات العديدة في الزراعة و علم الحيوان.
7- والشيخ حمزة فتح الله، اللغوي والأديب الشهير.
8- عبد الله أبو السعود، الصحفي الرائد في ميدان الصحافة غير الحكومة (صاحب جريدة "النيل").
9- مُحَمَّد بدر، الطبيب اللامع في عصره.
10- الشيخ عبد الهادي نجا الأبياري، من اللغويين المشهورين في عصره.

11- الشيخ حسين المرصفي، اللغوي والأديب.

إلى غيرهم و غيرهم من أبرز علماء العصر و مفكريه و مترجميه و مثقفيه[15].

ولقد دأبت (روضة المدارس) على نشر "ملاحق" لأعدادها، تنشر فيها فصولا متتابعة تكون كتبا كبيرة في موضوعاتها، بأقلام هؤلاء العلماء المتخصصين، فنشرت لعلي مبارك (حقائق الأخبار في أوصاف البحار) و لمنصور أفندي أحمد (اللألي السنية في الفوائد الكيميائية) ولعبد الله فكري (كنوز الأشعار و منثور الأفكار) ولإسماعيل الفلكي (بهجة الطالب في علم الكواكب) و للشيخ عثمان مدوح (غريب النوادر والمضحكات والألغاز والأحاجي والنكات) ولرفاعة رافع الطهطاوي (القول السديد في الاجتهاد والتجديد) و (نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز) وللطبيب مُحَمَّد بدر (الصحة التامة المنحة العامة) و قد ذكرت هذه الكتب لأشير إلى تنوع الثقافات التي احتفلت بها "روضة المدارس" ولأثبت الصلة بينها و بين روح العصر الذي عاشت فيه هذه المجلة مؤدية عملها الثقافي بنجاح لايقل عن نجاح "المدارس الحديثة" التي أنشأتها الحكومة لنفس هذا الغرض.

وقد حشد رفاعة رافع الطهطاوي لتحقيق أغراضه في (روضة المدارس) جلة الأدباء والعلماء، وجعل من وظائفهم العامة التحرير في مجلته حتى إى أحدا من أصحاب الفكر لم يفته شرف التحرير في صحيفة الحكومة الأدبية، و كان بين من حرر فيها جماعة من موظفي الحكومة الفرنجة الذين كانت تستعين بهم الدولة في مدارسها العالية والتجهيزية، و قد تولى كثيرون من الأدباء المصريين القادرين على الترجمة تعريب مقالات هؤلاء الأجانب، تلك المقالات التي امتازت بالعمق والطرافة والجدة، و ضربت المثل لكثير من المواطنين فأنشأوا المقالات البديعة متأثرين ما نشره الفرنجة في روضة المدارس و شاعت المنافسة بين الأجانب والمصريين استفاد القارئ سواء كان موظّفًا أو من عامة الناس ساهموا ببعض المقالات في شتى الموضوعات[16].

[15] رفاعة الطهطاوي، حسين فوزي النجار، ص23(المطبع دار النهضة بمصر 1957م).

[16] إعلام الصحافة العربية، إبراهيم عبده، ص34(مكتبة الآداب بمصر 1948م).

ومن أجمل ما أشرعن رفاعة رافع الطهطاوي و مدرسته الصحفية عنايته بشؤون المرأة، فكانت الروضة في مقدمة الصحف الشرقية التي عنيت بالموضوعات والأخبار النسوية، ولم يكن يمضى عدد منها تقريبا دون حديث عنها أو عن نشاطها أو دون نشر خطبة أو مقال لناظرة أو معلمة، و لم تخل المجلة من بعض البحوث التي لا تحتملها آداب العصر لحياة المرأة والرجل في المنزل وهو نقد اجتماعي لبيوتنا اضطر الكاتب إلى تعبيرات لا تأذن بها صفة الجريدة أو الآداب العامة حتى في أيامنا الحاضرة.

و قد قضى رفاعة رافع الطهطاوي وهو قائم بعمله في تحرير الروضة، وهزت وفاته صحافة مصر والشرق الأدنى، واعتبرته جميعًا أستاذ الصحافة المصرية الذي خرج خيرة رجالها، فهو مربي جيل المعلمين والمترجمين والصحفيين؛ وهو يعتبر أول رائد للنهضة العلمية والفكرية والأدبية العربية الحديثة في مصر كما يعتبر أول رائد للنهضة الصحافية في العالم العربي.